حِينَ يُوقِظُنَا مَوْتُ الأَحِبَّةِ
قَاسِمٌ رَحِمَهُ اللهُ

كتبه:
صغيّر بن محمّد الصغيّر

بسم الله الرحمن الرحيم

شـدّتني تغريدةٌ للأسـتاذ يوسـف الروقي، لا لبلاغتها، بل لوقعها الذي طرق القلب طرقًا عنيفًا؛ حدّث فيها عن شـابٍ لم يتجاوز الرابعة والعشـرين، غسّـله بيديه، شـابٌّ نام على فراشـه فلم يسـتيقظ، أُيقظ للصـلاة فلم يقم، فـإذا بـه قـد سـبق إلى الآخرة في صمتٍ مهيب.

كان في تمام صحته ونشـاطه، حافظًا لكتاب الله منذ نعومة أظفاره، ثم إمامًا لمسـجد. كلمات قليلة، لكنها ثقيلة الوزن، كأنها تقول لنا جميعًا: **انتبهوا... فالموت أقرب مما تظنون.**

وكأن الآية تُتلى في ســـرائرنا: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾(١)

(١) [لقمان: ٣٤].

ما إن فرغتُ من قراءتها حتى سحبتني الذاكرة بقوة إلى يومٍ لا يزال تاريخه محفورًا في القلب: يوم الإثنين الثالث والعشرين من شهر رجب عام ١٤٣١هـ، يوم رحل شقيقي قاسم -رحمه الله- فجأة، بسكتةٍ قلبية وهو على فراشه، وقد بلغ الأربعين من عمره؛ في أوج شبابه، وذروة عطائه، فإذا بالموت يأتيه كما أتى ذلك الشاب: هادئًا، صامتًا، حاسمًا. وهنا يتجلّى صدق قوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (١).

نشأنا معًا في بيتٍ واحد، وعرفته في سرّائه وضرّائه. كان صبورًا على البلاء صبرَ من تتابعت عليه الابتلاءات فلم تكسره، بل لعلّها زادته رفعةً عند الله. وحقًّا ما أصدق وعد الله جلّ شأنه:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢)

---

(١) [آل عمران: ١٨٥].

(٢) [الزمر: ١٠].

كنت أراه إذا اشتدّت عليه الأمور يلجأ إلى الله، يجاهد نفسه بالبكاء والتضرّع، يرجو تفريج الكرب، ويوقن أن الفرج يولد من أبواب السجود. وهذا يذكر حقا بحال السلف؛ قال الحسن البصري رحمه الله: **«كنا إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الصلاة».** (١)

وكان من أهل صدقات الخفاء؛ يتصدّق رغم قلّة ذات يده، يعطي وهو محتاج، ويواسي غيره وهو يقتسم القليل. وكأن بشراه تُتلى في قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ (٢)

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦٦١١)، وأحمد في الزهد (١٥٢١)، و أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥٧).

(٢) [البقرة: ٢٧٤].

ولعله يشهد له قول النبي ﷺ: «**أفضل الصدقة أن تصدّق و أنت صحيح شحيح، تخشى الفقروتأمل الغنى**». (١)

يا الله ما أروع أولئك الذين يُؤثِرون حال غيرهم على أنفسهم؛ أولئك الذين كانوا يطعمون وهم صائمون، ويبيتون على الطوى، كما حُكي عن عليٍّ وفاطمة - رضي الله عنهما- حين آثروا المسكين واليتيم والأسير، فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ**﴾ (٢)

أما فزْعات قاسم -رحمه الله- للناس فكانت سجيةً لا تكلّف فيها؛ كان حاضرًا عند الحاجة، سباقاً إلى المعروف، لا ينتظر شكرًا ولا ثناء. وأرجو أن يناله

---

(١) رواه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢).

(٢) [الإنسان: ٨].

عون الله في آخرته كما وعد النبي ﷺ: «**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**». (١)

ولعلّه يصدق فيه أيضا ما قاله عمر -رضي الله عنه- وهو يحمل صدقات الفقراء: «**إن لم أحملها في الدنيا، فمن يحملها عني يوم القيامة؟**» (٢)

هكذا كان قاسم: يعمل في صمت، ويترك الأثر دون أن يلتفت إلى الذكر، وفوق ذلك كلّه، كان طاهر القلب، سليم الصدر، لا يحمل حقدًا ولا يضمر سوءًا. وكأن قلبه يترجم معنى قوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (٣)

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩)، و أبو داود (٤٩٤٦)، والترمذي (٢٩٤٥).

(٢) انظر: مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ابن الجوزي، ص (١٦١)، حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني (٧٩/١).

(٣) [الشعراء: ٨٩].

وقال سفيان الثوري رحمه الله: «**ما عالجت شيئًا أشدّ عليّ من نيّتي، إلا أن سلامة الصدر دواء القلوب**». (١)

وفي آخر سنةٍ من حياته، اختار أن يكون معلّمًا للقرآن للصغار؛ ولعل الخيرية نالته في قول النبي ﷺ: «**خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه**». (٢)

وفي العام نفسه نال تشجيعًا من أحد المسؤولين بوصفه "المعلّم المثالي"؛ شهادةً كأنها بشارة خفيّة بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا. وكان السلف يرون تعليم القرآن من أجلّ القربات؛ قال الإمام

(١) انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني (٥/٧)، وسير أعلام النبلاء، الذهبي (٢٨٢/٧).

(٢) رواه البخاري (٥٠٢٧)، و أبو داود (١٤٥٢)، والترمذي (٢٩٠٧).

مالك رحمه الله: «**أفضل ما اشتغل به المرء تعليم كتاب الله**». (١)

وفي عطف قاسم رحمه الله أعجوبة، فكان -رحمه الله- إذا أقبل على الأطفال لم يُقبل عليهم بطول جسدٍ أو رفعة مقام، بل أقبل بقلبٍ منحنٍ رحيم، يرى في صِغَرهم أمانة، وفي ضعفهم موضعَ جبر، وفي ضحكتهم عبادة، كان يعرف أن الطفل لا يحتاج كثيرَ كلام، بل يحتاج يدًا صادقة، ونظرةً آمنة، وكلمةً تُرمِّم ما انكسر في داخله قبل أن يتعلّم كيف يُسمّيه.

عطفُ قاسم -رحمه الله- لم يكن عاطفةً عابرة، بل خُلُقًا مقيمًا؛ إذا رأى طفلًا خائفًا طَمْأنه، وإذا رأى كسيرًا جبرَه، وإذا لمح في عينٍ دمعةً سبقها إلى المسح قبل أن تسقط. كان يجيد لغة القلوب الصغيرة؛

---

(١) انظر: حلية الأولياء (٦/٣١٨)، وترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض (٢/٦٥).

يضحك ليزرع الطمأنينة، وينصت ليُشعرهم بأن أصواتهم مسموعة، ويشاركهم لعبهم ليقول لهم: أنتم مهمّون كما أنتم.

وجبرُ الخواطر عند قاسم -رحمه الله- عبادةٌ صامتة. يعلم أن الكلمة اللطيفة صدقة، وأن المواساة حياة، وأن قلب الطفل إذا انكسر مبكرًا صعُبَ رأبُه لاحقًا.

فكان يُكثر من الثناء الصادق، ويزرع الثقة، ويُبدّل الخوف أملًا، لأن الجبر لا يكون دائمًا بالمال، بل غالبًا بالاهتمام.

وهذا الخُلُق راسخٌ في هدي الشريعة؛ فقد بعث الله نبيَّه ﷺ رحمةً للعالمين، والطفل أولى الناس بالرحمة. قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[1]، فاللين طريق القلوب، لا سيما قلوب الصغار.

---

(١) [آل عمران: ١٥٩].

وكان ﷺ أرحمَ الناس بالأطفال؛ يقبّلهم، ويحملهم، ولا يُطيل السجود لأجلهم، ويقول: «مَن لا يَرحم لا يُرحم»[1]، ويقول أيضًا: «ليس منّا من لم يَرحم صغيرَنا ويُوقّر كبيرَنا».[2]

فجَعَل ﷺ الرحمة ميزان الانتماء الخُلقي للأمة، وجعل الصغير ميدانًا صريحًا لاختبار صدقها.

وجبر الخاطر خُلُقٌ مؤكد؛ قال ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[3]، وأيُّ عونٍ أعظم من عون قلبٍ يتشكّل؟

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في "سننه" (١٩١٩) وقال: "حسن صحيح"، و أبو داود (٤٩٤٣)، وأحمد في "المسند" (٦٧٣٣). وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٥٤٤٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، والترمذي (٢٩٤٥)، و أبو داود (٤٩٤٦)، وأحمد (٧٤٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾[1]، وفيه نهيٌ عن القهر بكل صوره: قولًا، ونظرةً، وإهمالًا.

لقد فهم قاسم -رحمه الله- هذه المعاني قبل أن تُصاغ كلماتٍ؛ فكان فعله ترجمةً للشرع، وخلُقه تفسيرًا للآيات، أحبَّ الأطفال لأن الله يحبّ من يرحمهم، وجبر خواطرهم لأن الجبر قربى، ولأن القلب إذا صَلُح في الصغر صَلُح العمر كلّه.

رحم الله قاسمًا، وجعل ما قدّم في ميزان حسناته، وجعل أثر رحمته باقياً في قلوبٍ صغيرة كَبُرت على الطمأنينة، وعرفت باكرًا أن الرحمة دين، وأن الإحسان للصغار عبادة جليلة.

---

(١) [الضحى: ٩].

ثم جاء الموت... ليؤكّد معنى قول النبي ﷺ: «**أكثروا ذكر هادم اللذات**».[1] جاء ليعلّمنا أن حسن الخاتمة لا يُقاس بضجيج الرحيل، بل بصدق الحياة. وقد قيل لبعض السلف: «**ما بال الموت لا يفاجئكم؟**» قال: «**لأننا ننتظره كل يوم**».[2]

رحمك الله يا قاسم، وجعل صبرك على ابتلاءاتك رفعةً في درجاتك، وصدقاتك الخفية ظلًّا لك يوم لا ظلّ إلا ظلّه، وفزعاتك للناس شاهدَ صدقٍ لك، وتعليمك القرآن للصغار صدقةً جارية لا تنقطع.

اللهم أصلح ذريته، واجعلهم من الصالحين المصلحين، واحفظهم بحفظك، واكتب لهم الهداية

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٧)، والنسائي (١٨٢٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، واللفظ للترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

(٢) انظر: حلية الأولياء (١١٣/٤)، وصفة الصفوة، ابن الجوزي (٧٥/٢)، والقول منسوب لـ: خيثمة بن عبد الرحمن، أحد كبار التابعين (ت: ٨٠هـ، وقيل ٨٢هـ).

والتقى والعفاف والغنى. اللهم اجعلهم بررةً به بعد موته، نافعين لدينهم وأمتهم، واجعلهم امتدادًا لأثره الطيب، وسرًّا جاريًا في ميزان حسناته. اللهم اربط على قلوبهم، واجبر كسرهم، ووفّقهم لكل خير، واجعل مستقبلهم فلَاحًا وصلاحًا ونورًا.

ويبقى الدرس حاضرًا واضحاً لا يبهت:

أن نعيش بقلوبٍ سليمة، وأيدٍ ممدودة، وأعمالٍ خفيّة، استعدادًا ليومٍ نُحمَل فيه على الأعناق... فالأجساد تُوارى، لكن الأثر الصالح لا يُدفن.

رحم الله موتانا وموتى المسلمين جميعًا، وأحسَن لنا الختام

وكتبه: صغيّر بن محمد الصغيّر

٢٥ رجب ١٤٤٧هـ